بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَ لاَ تَموتُنَّ إلاَّ وَأَنْتم مُسْلِمونَ . وَاعْتَصموا بحَبْلِ اللهِ جَميعًا وَ لاَ تَفَرَّقوا وَاذكروا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كنْتُم أَعْدَاءً فَألَّفَ بَيْنَ قُلوبكمْ فَأَصْبَحْتُم بنعِمَتِهَ إخْوَاناً وَكنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذكمْ منْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[آل عمران : الآيتان : ١٠٢ و ١٠٣]

نتكلم هنا عن وحدة المسلمين على اعتبار أنها فرض على كل مسلم على حدة وعلى المسلمين جماعة ، والخلاف بين المسلمين مخالفة لواحدة من أساسيات الإسلام ، وهى وحدة الأمة ، والأمة الإسلامية المتنازعة المتدابرة المتحاربة ليست أمة إسلامية أو يصعب أن تكون أمة إسلامية حقاً ، لأن الإسلام دين وحدة واتحاد .

والحبل فى الآيات البينات التى جعلناها مداراً لهذا الحديث هو العهد أو

الموثق أو الميثاق ، وأنت فى الإسلام على موثق مع الله وعهد ، ولابد أن تتمسك بهذا الميثاق لأنه عاصمك من الزلل ومن الضياع ، وفى سورة المائدة آيات محكمات تؤكد لنا هذا الميثاق بيننا وبين الله ، وما ينطوى عليه من معان وفضائل أحب أن آتيك بها هنا على نسق لتستقر معانيها فى نفسك إن شاء الله :

﴿ واذكروا نِعمة اللهِ عليكم وميثاقَهُ الذى واثقكم بهِ إذ قُلتُم سمِعنا وأَطعنا ، واتقوا الله إن الله عليمٌ بذاتِ الصُدور . يَأَيُّهَا الذِين آمَنُوا كُونوا قوامِين للهِ شُهداء بالقِسطِ ولا يجرِ منكُم شنئانُ قومٍ على ألاّ تعدلوا اعدِلوا هُو أقربُ للتقوى واتقوا الله إن الله خبِيرٌ بما تعملونَ ﴾ .

[المائدة ٥/ ٧ ـ ٨] .

فهنا نرى أن الإسلام يرفع قدرتك ، ويجعلك على موثق شريف مع بارىء الكون سبحانه ، وأنت إذ خرجت على وحدة المسلمين ، فأنت تكسر ميثاقك معه . وتتخلى عن حبل الله جلا جلاله ، فتتعرض لأشد الأخطار ، وأنت ترى أن المسلمين لم يؤتوا على طول تاريخهم إلا من ناحية التفرق والاختلاف والخصام فالمسلمون المتحدون المتمسكون بحبل الله مسلمون أفاضل أقوياء لا ينالهم أحد بشر ، لأن التمسك بميثاق الله أساس الفضائل كلها ، وقاعدة القوة كلها ، وأنت إذ ظللت على العهد والميثاق ، وقلبك مع الله سبحانه ويدك فى يد أخيك المسلم لن يصيبك شرقط ، ولا دخل على إيمانك ريب أو وهن تخشى مغبته ، وأنت بهذا الميثاق تجد نفسك قواماً لله شاهداً بالقسط ، وأحسست فى نفسك من القوة ما يجعلك تتمسك بالحق والعدل دون أن تخشى أحداً ، لأنك مادمت معتصماً بالله فهو عاصمك من الزلل ، وهنا تجد نفسك عادلاً منصفاً قويًّا .

وأنا أعرف أن ائتلاف كل المسلمين بعضهم مع بعض عسير ، فالقلوب تتجاذب وتتنافر ، وتدافع الحياة وصراعها يوقع بيننا العداوة والبغضاء بين الحين

والحين ، وهذه سنة الحياة ، ولكن المصيبة الكبرى هى وقوع الخلاف والانقسام ـ فضلاً عن الحرب ـ داخل الأمة ، لأن الإيمان بالإسلام لا يصح إلا مع الاتحاد .

وأريد أن أوضح هـذه النقطة لأن كثيرين من المسلمين فى الماضى والحاضر قد حسبـوا أن المسلمين جميعاً ينبغى أن يكونـوا دولة واحدة تخضع لـرئيس واحد ونظام واحـد ، وهذا وهم أتانـا من نجاح الخلافـة الراشدة الأولى أيـام أبى بكر وعمر ، فقد كنا فعـلاً أمة واحدة قوية ذات نظام واحد ورياسة واحدة فى عهد هذين الصحـابيين الجليلين ، وعندمـا وقع الخلاف وقامت الفتنـة أيام عثمان ، ووقع فى ظننا أننـا لابد أن نعـود دولة واحدة لنستعيـد قوتنا أيـام الرسـول الأكرم وخليفتيه الأولين ، وعندمـا عادت الجماعة ونادى معاويـة بن أبى سفيان بنفسه خليفة عـام الجماعة سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م . ظن معاويـة أن واجبه توحيـد أمة الإسلام كلهـا تحت لوائه ، فإذا رفضت ناحيـة أو جماعة الطاعة لـه أرسل عليها الجيوش وعاقبها وأذلها ، ومازال بها حتى يرغمها على الطاعة ، وقد فتح معاوية بذلك على نفسه وعلى خلفاء الإسلام من بعـده باب بلاء بلا حدود ، وفى محاولة إخضاع المسلمين جميعاً لطـاعته وقع معاوية ـ والسفيانيون من بعـد ـ فى أخطاء شنيعة ، وقارفوا جرائم بشعة قضت عليهم ، وكذلك وقع للمروانيين من بعدهم ، فقد ارتكبوا من الفظائع فى سبيل إخضاع الناس جميعاً لطاعتهم ما لم يكن أحد يتصور وقـوعه بين المسلمين ، وليتهم مع ذلك وصلوا إلى تـوحيد المسلمين ، بل العكس هو الذى حدث ، فإن أمة الإسلام زادت تفرقاً وخلافاً وعمتها الشرور ، وبنـو أمية أنفسهم احترقـوا بنفس النار ، والعبـاسيـون أقامـوا لهم المذابح ، ثم ساروا فى نفس طريق الخلاف والدماء .

والحقيقة هى أن الإسلام لا يتطلب الوحدة السيـاسية الكاملة لكل شعوبه بل الوحدة الإيمانية والقلبية ، ورسول الله فى كتبـه التى أعطاها لبعض الرؤساء لم يطلب إليهم شيئاً بعـد الدخول فى أمـة الإسلام ، وترك الكثير من الـرؤساء على

حالهم ورياستهم ماداموا قد دخلوا الإسلام وأصبحوا جزءاً من أمته ، يلبون داعى الجهاد إذا دعاهم ، ويؤتون الزكوات ويظلون إخوة لكل المسلمين ، وأذكر لك هنا مثال جيفر وعبد ابنى الجلندى ، وكان جيفر منهما ملك عُمان (بضم العين) وأخوه عبد يساعده ، فكتب إليهما رسول الله ﷺ يدعوهما لدخول الإسلام ، قال عمرو بن العاص رسول رسول الله إليهما : « فدخلت عليه ـ أى على جيفر ـ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدقاً بالنبى ﷺ وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوناً على من خالفنى ، فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها فى فقرائهم ، فلم أزل مقيماً فيهم حتى بلغتنا وفاة رسول الله ﷺ » (طبقات ابن سعد ١/ ١٨) .

فها هنا نرى أن رسول الله قد ترك المَلِكَ على مُلْكِه مادام قد دخل هو وقومه فى الإسلام ، وأطاعا وسمحاً لمندوب الرسول ﷺ بأن يشرف على إخراج الصدقات ويحكم بينهم بشريعة الإسلام ، وهما إنما سمحا لعمرو بالحكم بين الناس فى عُمان لأنهما لم يكونا يعرفان شريعة الإسلام بعد وعمرو هنا لم يكن حاكماً ولا والياً ، وإنما هو مجرد عامل على الصَّدقات ومُعَرِّفٍ للناس بأحكام الشريعة .

أما الحكم فظل فى يد جيفر وأخيه ، لأن الأزد ـ أهل عُمان كانوا راضين عنهما ـ ولم يفكر رسول الله فى نزع الرجل عن ملكه ، لأن الإسلام لا دخل له فى شكل الحكم ونظامه مادام قائماً على العدل والتراضى محافظاً على شريعة الإسلام .

أقول ذلك لأطرد وهم السياسة من عقول المسلمين ، لأن إدخال السياسة فى الفكر الإسلامى انتهى بغلبة السياسة على الإسلام نفسه فى تاريخنا ، فتجد تاريخنا كله أصبح نزاعاً بين الطامعين فى الملك والقوة والأموال ، وفى سبيل

السياسة ضحينا بالإسلام ، فللقضاء على الحسين بن على رحمه الله كانت مأساة كربلاء ، وللقضاء على ابن الزبير انتهكت حرمة الكعبة والبيت الحرام ، بل أصر مسلم بن عقبة المرّى أن يقر أهل المدينة على أنفسهم بأنهم (خُوَلٌ) أى عبيد ليزيد بن معاوية فهل هذا من الإسلام ؟ بل هل هذا من الشرف والإنسانية ؟ .

وعلى طول العصور الماضية لم تتوقف الحروب بين حكامنا قط ، بل نجد أن الدولة تقوم فى مكان ما ويستقيم لها الأمر ، فلا تكاد تطمئن على نفسها حتى تدخل فى حرب مع جارتها تريد أن تستولى عليها ، وتستعبد أهلها ، ولم يكن بضائرها فى شىء أن تعيش هى ، وتعيش جارتها ، ويكون بينهما التعاون والتفاهم والتآزر على الأعداء من القاصدين أذى الإسلام ، وقد أوغلنا فى طريق السياسة الفاسد حتى فسد فكرنا السياسى الضار بالإسلام ، وكان لابد أن ننتظر حتى يستولى أهل الغرب على بلادنا ، ويستعمروها ويعلمونا طرائقهم فى السياسة ، وينقلوا إلينا فكرهم السياسى ، وحتى بعد أن تحررنا منهم واستقلت بلادنا وقامت فيها الدول المحلية ظل العداء بين دولنا هو القاعدة ، أما المودة والتعاون فهو الاستثناء ، وما من بلدين عربيين مسلمين متجاورين إلا بينهما أشياء وأشياء ، وهذه هى جامعة الدول العربية لا تكاد دولها تجمع على رأى ، مع أن أهل الغرب وهم ليسوا مسلمين قد عقلوا وفهموا بعد تجارب السنين الطوال ، وبعد الحروب والعداوات والثارات أدركوا فى النهاية أن الصداقة بين الدول أجدى وأعون على القوة والخير ، والجماعة الأوربية جماعة ناجحة تتعاون دولها على ما فيه خيرها جميعاً ، بل إن دول الجماعة أصبحت وحدة سياسية واقتصادية قائمة بذاتها تحمى بلادها واقتصادياتها من ضغط الدولتين العظميين .

هل تصدق أنه لم يحدث مرة فى تاريخنا الماضى أن زار ملك عربى مسلم بلد ملك عربى مسلم آخر ؟ لأنهم جميعاً كانوا يعرفون أنهم أعداء بمجرد أنهم أمراء

أو ملوك ، وأن الواحد منهم إذا دخل بلد ملك أو أمير مسلم آخر فلن يخرج منه حيًّا ، هكـذا دون سبب ، بل إن ملـوك الإسلام كـانوا لا يحجـون إلا فيما ندر ، ولكى يحج الواحـد منهم كان لابـد أن يكون الحجـاز فى ملكه حتى يطمئن على نفسه ، وكل أمراء الأندلس وخلفـائه لم يحجوا ، لا ولا حج من الفاطميين أحد حتى بعد أن أصبح الحجاز داخـلاً فى دولتهم ، ولم يحج من سلاطين المغرب إلا واحـد هو السلطـان عبـد الحفيظ ، وقد حج بعـد تخليـه عن العرش ، وهـؤلاء السلاطين لم يتـوقفوا عن الحج عن تقصير فى جنب الله ، وإنما لأن الطـريق غير مأمون ، فهناك سلاطين مسلمون آخرون فى الطريق ، وكل السلاطين وأصحاب الدول أعداء بعضهم لبعض ، لمجرد أنهم سلاطين ، لأن السيـاسة عندنا تفسد القلوب .

ومن غريب الأمر أن ملـوك النصرانية فى العصور الوسطى كـانوا فى بلادهم على مثل حال أصحاب الدول عنـدنا من العداوة والحروب ، فلما كانت الحروب الصليبيـة اتفقـوا على حـربنـا فحسب ، وتلاقـوا وتفـاهموا على حـرب الإسـلام والعدوان على أراضيه ومقدساته وأهله ، بينما نحن لم نكف عن العداوات أبداً ، وقد قضى واحد من أبطال حركة التجمع والتوحيـد عندنا وهو نور الدين محمود ابن عماد الـدين زنكى أكثـر مـن عشر سنـوات من سنـوات جهـاده يحاول ضم دمشق إلى جبهـة الجهاد دون جدوى ، وقـد وقف لـه فى الطريق حـاكمها معين الدين أنو ، كان حليفاً للصليبيين على إخوانه المسلمين ، وقد أشجاهم بعداوته فلم تنضم دمشق إلى جبهـة الجهـاد إلا بعـد مـوتـه ، وعنـدمـا انضمت دمشق وتـوحدت بـلاد الموصل والجزيـرة الفـراتية والشـام انفتح الطـريق لضم مصر ؛ وبانضمامها على يد نور الدين ، ثم صلاح الدين كان النصر العظيم ، وكان يوم حطين وانكسر ظهـر الصليبيين واستعـاد المسلمـون القـدس ، فكأن العـدو الحقيقى لم يكن الصليبيين بل كان العدو هو داء التفرق السياسى الوبيل .

وأمة الإسلام لم تهتز فى الميدان أمام عدو من أعدائها أبداً ، أما الذين انكسروا فقد كانوا أصحاب الدول وأصحاب المطامع السياسية ، ونصر حطين الذى نفخر به كسبه المجاهدون والمتطوعون المسلمون الأحرار الذين خفوا للقتال ألوفاً حسبة لوجه الله ، ولم يكن من المقدر أن تدور المعركة فى سهل حطين ، إنما كان صلاح الدين وجيشه فى طريقهم للقاء العدو عندما تعرض عشرات الألوف من المجاهدين المسلمين لجيش الفرنجة وأوقفوا سيره وتحيفوه وناشوا جوانبه وساقته وتخطفوا فرسانهم ، وحالوا بينهم وبين الماء ، وكان الجو حاراً وهم فى دروع الحديد ، فخلع الكثيرون منهم دروعهم فأصابتهم سهام النبَّالة وخاصة التركمان منهم ، وقرابة الظهر وبعد أن أهلكهم الحر والمتطوعون هجم فرسان صلاح الدين ومشاته فأجهزوا على الألوف منهم واستسلم الباقون وكان النصر العظيم .

ذلك أن لباب الوجود الإسلامى هو الأمة ، هو الأصل ، وهو القوة ، وهو مستقر الإيمان ، وقاعدة الإسلام ، ثم تجىء الدولة بعد ذلك تنظيماً إدارياً لا دخل له بكيان الأمة ، والله سبحانه فى محكم تنزيله لم يخاطب المسلمين قط كدولة ، بل كأمة أى جماعة المؤمنين المتآلفة قلوبهم المستمسكة بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وقد سبق أن ذكرت لك أن الله لا يخاطب الإنسان الفرد فى موقف الرضا إلا نادراً ، أما الأمة فهى دائماً موضع محبة الله وعنايته ورعايته وتوجيهه ، لأن الأمة هى المعتصمة بحبل الله دون تفرق ، فإذا هى تفرقت لم تعد أمة مسلمة ، ولم تعد محل عناية الله ورعايته ، ولم تعد تستحق نصره ، وعادت كما كانت قبل نعمة الإسلام على شفا حفرة من النار ، بل تدهورت فى النار .

وفى سورة آل عمران نحو ستين آية متوالية تشير إلى ما وقع للمسلمين فى يوم أحد ، والذى حدث فى أحد هو أن المسلمين بعد تبادل للرأى طويل بين رسول الله ﷺ والمسلمين انتهى أمرهم إلى الاتفاق على لقاء العدو خارج المدينة ، وكان

الرسول لا يرى بأساً فى أن يكون القتال بين المسلمين وخصومهم داخل المدينة ، ولكن الاتفاق تم على ما قلناه ، وأراد بعض المسلمين ـ بعد الاتفاق ـ أن يعودوا إلى رأى الرسول مخافة أن يكونوا قد اضطروه إلى قبول مالا يحب ، فأبى ، وكان من رأيه أن المسلمين إذا اتفقوا على شىء فلا مجال للاختلاف بعد ذلك بحال ، لأن الاتحاد فى الرأى والعمل هو سرقوة أمة الإسلام ، قال سبحانه فى آيات آل عمران التى نحن بصددها :

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾.

[آل عمران ٣/ ١٠٥ ـ ١٠٧].

فهنا يعتبر التفرق والاختلاف بعد الاتفاق بمثابة الكفر بعد الإيمان ، والذين يختلفون مع إخوانهم تسود وجوههم ، ومصيرهم إلى النار ، إلى هذا الحد يبلغ اهتمام الإسلام بوحدة المسلمين ، ويذهب بعض الذين يصرون على أن يروا فى رسول الله صورة الحاكم السياسى الذى يأمر ولابد أن يطاع ، يذهب هؤلاء إلى أن الرماة الذين أوقفهم رسول الله على جبل عينين لرد الفرسان عن المسلمين (وكان معظمهم يحاربون على أقدامهم ، فلم يكن لدى المسلمين بوم أحد إلا فرسان اثنان يذهب هؤلاء إلى أن الرماة خالفوا أمر رسول الله ﷺ وبارحوا مواقعهم فكان ما كان ، والحقيقة أن الرماة لم يخالفوا أمر رسول الله ، بل خالفوا ما اجتمع عليه رأى المسلمين وقام بتنفيذه الرسول . .

وفى آيات آل عمران هذه ، نقرأ إشارة إلى ما كان من نصر الله للمؤمنين ببدر بسبب اتحاد قلوبهم :

﴿ ولقد نَصَرَكُم الله ببدْرٍ وأنتُم أذِلةٌ فاتقوا الله لعلكُم تشكرُون . إذ تقول للمُؤمنين ألنْ يكفيكُم أنْ يمدكم ربُكُم بثلاثةِ آلافٍ مِن الملائكةِ مُنزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم مِن فورِهِم هذا يُمدِدكُم ربكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مُسومِين . وما جعله الله إلا بُشرى لكُمْ ولتطمئن قلوبُكم بهِ وما النصرُ إلا مِن عندِ الله العزيز الحكيم ﴾ .

[آل عمران ٣/ ١٢٣ ـ ١٢٦] .

فهنا ولأن قلوب المؤمنين اتحدت كان نصر الله للمؤمنين لا بثلاثة آلاف من الملائكة فحسب ، بل بخمسة آلاف ، لأن النصر كله من عند الله ، وهو لا يكون إلا للأمة المتحدة المعتصمة بحبل الله جميعاً دون تفرق ، فما الذى حدث فى أحد ، الذى حدث هو أن جماعة من المسلمين خالفت ما وقع عليه الاتفاق فكانت النتيجة ما دار على المسلمين من هزيمة وقتل ، لولا أن رسول الله بشجاعته النادرة ورباطة جأشه الذى لا يتزعزع ـ ثبت ونادى المسلمين فثابوا إليه وجمعهم حوله من جديد .

وسار بهم على مهل ، فدخل هو وبعض أصحابه خلف حائط صخرى قصير ، وتترس المسلمون أمامه وظهرهم إلى الجبل ، وعاد الرماة يرمون ويردون الخيل عن المسلمين ، فأنقذ رسول الله جماعة المسلمين وحول إلى نصر ما بدا وكأنه هزيمة فى الدور الثانى من أدوار المعركة .

وقد سمعنا قول الحق سبحانه للمسلمين المتحدين يوم بدر ، فلنسمع ما يقوله للمسلمين الذين اختلفوا يوم أحد :

﴿ هذا بيانٌ للناسِ وهُدى وموعِظةٌ للمُتقِين . ولا تهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كُنتم مؤمِنِين . إن يَمْسَسْكُمْ قرحٌ فقد مَس القوم قرحٌ مِثلهُ وتلك الأيامُ نُداولها بين الناسِ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم

شُهداء والله لا يُحِب الظالِمين ﴾ [آل عمران ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠].

إن الله هنا يعزى المسلمين عما أصابهم ، ويذكرهم بأنهم إذا كان قد مسهم جرح فقد مس القوم مثله ، فلا ينبغى إذن أن يحزن المسلمون أو يضعفوا وهم الأعلون (بإيمانهم واتحادهم) وليعلموا أنهم إذا اختلفوا فيما بينهم فقد قصروا فى حق إيمانهم وأصبحوا بهذا فى مثل مرتبة غير المسلمين ، وأصبحوا ناساً من جملة الناس ، وهنا تجوز عليهم الهزيمة ، لأن الله جعل الأيام دولاً بين الناس ، أما المؤمنون الذين ينصرون الله فهو سبحانه ناصرهم وممدهم بكل ما هم بحاجة إليه من العون .

ومرتان فى القرآن الكريم نقرأ قول الحق سبحانه . **﴿ إن هذهِ أمتُكم أمةً واحِدةً وأنا ربُكم فاعبُدونِ وتقطعُوا أمرَهُمْ بينهُم كُل إلينا راجِعُون ﴾** [الأنبياء ٢١/ ٩٢ ـ ٩٣].

والمرة الثانية فى سورة (المؤمنون) :

﴿ وإن هذهِ أمتُكُم أمةً واحِدةً وأنَا ربُكم فاتقُون فتَقطعُوا أمرهُم بينهُم زُبُراً كلُّ حِزب بِما لديهِم فرِحُونَ . فذرهُم فى غمرتِهِم حتى حِينٍ ﴾.

[المؤمنون ٢٣/ ٥٢ ـ ٥٤] .

فى المرة الأولى ترد الآية فى سياق الكلام على السيدة مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام فهى تذكر المسيحيين بأن أمة الله واحدة ، ولكنها اختلفت فيما بينها فخرجت عن مرادات الله ، والمرة الثانية ترد فى سياق الكلام عن موسى عليه السلام فهى تشير إلى اليهود .

وهذا يلفت نظرنا إلى أن آيات القرآن لا تتكرر ، ولو خيل إلينا أنها ترد أكثر

من مرة بنفس اللفظ ، لأن السياق هنا هو الذى يعطى الآية معناها الخاص فى كل مرة ، وها نحن أولاء نرى هنا أن الكلام فى المرة الأولى يرد فى سياق الحديث عن مريم بنت عمران والمسيحية ، وفى المرة الثانية يرد فى سياق الحديث عن موسى واليهود ، والمعنى المراد هنا ، هو أن أمة المؤمنين واحدة ، وهى أمة تعبد الله وتلتف حول لوائه وتعتصم بحبله اعتصام المسلمين ، والحقيقة البعيدة التى يؤكدها القرآن هنا ، هى أن النصرانية واليهودية والإسلام دين واحد ، هو دين الاعتصام بحبل الله تعالى وعبادته ، ولا يجوز فى هذه الحالة أن يختلف المؤمنون ويتقطعوا أمرهم بينهم أحزاباً أو أدياناً وإذا كان النصارى ينسبون إلى عيسى أو يسوع الناصرى ، واليهود منسوبين إلى يهوذا أو يهوفا وهو إله اليهود الخاص بهم فى عقيدتهم ، فإن الإسلام هو دين إسلام الإنسان وجهه لله وهو مؤمن ، فالنصارى الصادقون العابدون لله الواحد المسلمون وجوههم لله هم مؤمنون ، واليهود الصادقون العابدون لله الواحد المعتصمون بحبله المسلمون وجههم لله هم مسلمون ، ومن هنا نفهم على ضوء جديد قول الله للمؤمنين :

﴿ اليَوْمَ أكملتُ لكُمْ دينكُم وأتَممتُ عليكمْ نعمتِي ورضِيتُ لكُم الإسلامَ دِيناً ﴾ [المائدة ٥/ ٣] .

فإن الإسلام ـ كما رأينا ـ تمام الديانات السماوية ، وقد أكمل الله سبحانه به الدين ، لا على المسلمين فحسب ، بل على المؤمنين جميعاً ، إذ الحق أنه لا يهودية هناك ولا نصرانية ، بل هناك إسلام الإنسان وجهه لله لهم الإسلام ديناً وإذا كان الله واحداً فكيف تكون رسالته إلى أنبيائه شتى ؟ ومادام الله قد أرسل محمداً بالقرآن كلمة الله الصادقة التى أنزلها إلى البشر صدقاً وعدلاً ، فكيف يكون هناك مؤمن غير مسلم لله وجهه ، وكيف نأتى الله سبحانه وكل منا يدين بدين خاص به ؟ وهل فى القرآن حرف يتعارض مع ما عليه اليهود ؟ وهل فيه حرف يتعارض مع حرف فى العهد القديم أو العهد الجديد ؟ وهل يقول عيسى بن

مريم فى الأناجيل شيئاً يختلف مع ما فى القرآن ؟ أكل المشكلة هى أن كلمة الله حملها هنا محمد العربى ؟ أهو عناد وعصبية عنصرية إذن ؟ أهو موقف من محمد صلوات الله عليه ؟ هنا نفهم فى ضوء جديد مرة أخرى لماذا يقول الله سبحانه فى سورة آل عمران :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ [آل عمران ٣/ ١٨ ـ ١٩].

لأن المسألة هنا تصبح مسألة بغى على الله ومصادرة لمشيئته فى وضع رسالاته حيث يشاء ، والله لا يرضى أن يُبغى عليه أو تصادر مشيئته ، ولهذا فهو يقول هنا قولاً حاسماً لا ريب فيه **﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾** ثم يقول الحق سبحانه فى نفس السورة مؤكداً هذه المعانى كلها :

﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

[آل عمران ٣/ ٨٤ ـ ٨٥] .

ولكن موقفهم الظالم هذا من محمد ﷺ الرسول العربى لا ينبغى ألا يحفزنا على أن نرد عليه بموقف ظالم مثله ، لأننا نحن المسلمين مأمورون دائماً بأن ندعو إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهذا الأسلوب الهادىء الحكيم فى الدعوة ميزة من ميزات الإسلام ، فلندع الحانق المغيظ فى حنقه وغيظه حتى يتولاه الله بهدايته ، فإن الهداية لا تأتى إلا من الله ، وأنت مهما فعلت فإنك لن تهدى

من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، ولا تنس أن الآيات البينات التى أوردتها لك آنفا يعقبها قول الله سبحانه :

﴿ كَيف يَهْدِى الله قوماً كفروا بَعد إيمانِهم وشهِدوا أن الرسُول حقٌ وجاءهُم البيناتُ والله لا يَهدى القوْمَ الظالِمين ﴾ [آل عمران ٣/ ٨٦] .

ويستوقف نظرنا هنا أن الخلافات والأحقاد والحروب بين المسلمين لم تكن قط بين الشعوب الإسلامية ، فلم يحدث قط أن تحاربت مصر مع الشام ، أو الشام مع العراق ، أو شعب العراق مع شعب إيران ، ولكن الحروب كانت دائماً بين رجال السياسة وأصحاب الدول ، وأصحاب الدول كانوا فى تاريخنا الماضى دائماً غاصبين مكروهين من شعوبهم ، وبعد الخلفاء الراشدين لم نعرف حكاماً عادلين إلا فى النادر ، والطريق الوحيد للوصول إلى السلطان أصبح طريق الدماء ، ودماء عثمان الشهيد والحسين الشهيد وآل البيت الشهداء ودماء المسلمين الأتقياء الشهداء ظلت تضرج تاريخنا كله إلى حين قريب .

السبب أننا نسينا ـ من منتصف خلافة عثمان ـ أن الحكم الإسلامى لابد أن يكون جماعياً شورياً هكذا كان رسول الله يتولى أمور أمة الإسلام ، وتبعه فى ذلك الشيخان ، وعمر ـ على رغم ما يروى من شدته وحزمه ـ كان لا يقطع أمراً دون رأى كبار الصحابة الذين قاموا على رأس الأمة **﴿ أمة يدعُون إلى الخير ويأمُرون بالمعرُوفِ وينهون عنِ المنكرِ وأولئِك هُمُ المفلحُونَ ﴾** [آل عمران ٣/ ١٠٤] . وهكذا كان ينبغى أن يظل الأمر دائماً حتى تسير سياسة المسلمين فى الطريق الإسلامى السليم والحكم الجماعى ، أى إسناد رياسة الجماعة إلى نخبة مختارة من أهل الرأى والحكمة والفضيلة ، وهذه النخبة تختار واحداً منها للرياسة فترة محددة من الزمن ، هذا كان ولا يزال أسلم الطرق لقيادة الجماعات ولم تخل الأمة أبداً من الجماعة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن

المنكر ، بل لم يخف أمر هؤلاء الأفاضل قط عن الناس ، ولكن تحول الخلافة إلى سلطان مستبد أفسد كل شيء ، والخليفة الملك جعل أول همه القضاء على أهل الخير والفضل ، ليخلو له الأمر ، والمستبدون جعلوا همهم إخضاع أمة الإسلام كلها لإرادة واحدة ، فنهض لهم المنافسون فى كل مكان ، وأصحابنا الفقهاء لم يوجهوا همهم إلى إعادة الأمة لمنهج الشورى وحكم أمة الخير ، بل جعلوا يتناقشون فيمن يستحق الخلافة الملكية ، ومن لا يستحقها ، من هنا نجمت كارثة الحرب الأهلية التى لم تخمد نيرانها داخل أمة الإسلام أبداً ، ومن هنا أيضاً نجمت محنة الشيعية ، وهى محنة ما كان ينبغى أن تظهر فى كيان عالم الإسلام قط ولكنه الاستبداد والأنانية والعناد ، والعناد يورث الكفر كما يقولون .

***